أثر الدين

يظل لفظ الجلالة (الله) هو القيمة العليا والمرجعية الدائمة للناس، كلما شعروا بهمّ أو بضيق، أو بضعف أو بقوة أحياناً، لكن العلاقة مع الله ظلت علاقة غيبية متوارثة غير قابلة للنقاش والجدل، فهي واحدة من المسلمات التي لا جدال حولها من وجهة نظر المواطن الذي سلم أموره كلها لله، راضياً بهذا التسليم، وراضياً بنتيجته أيضاً دون أن يكون له أثر واضح في تحديد الأشياء، ودون أن يتدخل في صياغة أمور حياته الخاصة، وما بين أيدينا من الأمثال يؤكد لنا هذا الاستنتاج.

العيا عبا والطبيب الله

الأعمار والأرزاق بيد الله

الله يعوض عليك صبيان

الرزق على الله والعيشة ع الأجاويد

ما بقطع الرأس إلا اللي ركبه

كل يوم بيومه والرزق على الله

الشكوى لغير الله مذلة.

يا غافل الك الله

يا حلال العقد حلها

أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد

الله اللي أعطى والله اللي يوخذ

خليها ع الله

ونلمس هنا الاتكالية الواضحة التي اعتمد فيها المواطن على الله من خلال الأمثال الشعبية، هذه الاتكالية التي ينسقها المواطن أيضاً من خلال مثل واحد جاء على لسان رب العزة، فقال:

اسعى يا عبدي وأنا بسعي معاك

متمثلاً قوله تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾.

وفي جانب آخر فقد أفرغ المواطنون وعيهم الديني في العديد من الأمثال الشعبية التي جاءت مترجمة لبعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الشريفة، ومنها على سبيل المثال:

زاد اثنين بكفي ثلاثة

عن أبي هريرة (ﷺ) عن النبي (ﷺ) قال: (طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الأربعة) [متفق عليه].

وفي رواية لمسلم عن جابر (ﷺ) عن النبي (ﷺ) قال: (طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية).

وقال المثل:

أعطيني عمر وزتني في البحر

ما حدا بموت إلا تاتيجي ساعته

فلان عايش من قلة الموت

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: (185)].

وقال أيضاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة لقمان، الآية: (34)].

وقال أيضاً: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية: (34)].

وقال المثل:

احترم أبوك ولو كان صعلوك

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء، الآية: 23].

وقال أيضاً: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: (8)].

وقال المثل:

أبو الصرطلي وأبو فله في القبر متدلي

الموت كاس دايرع كل الناس

وقال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

وقال أيضاً: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان: (26-27)].

قال المثل:

خطية القط ما بتنط

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[متفق عليه].

وقال المثل:

خير النساء هي الودود الولود

وقال (ﷺ): (تزوجوا الودود الولود فإني مفاخر بكم الأمم يوم القيامة).

وقال المثل:

اللي بصبر بنول

الصبر مفتاح الفرج

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

ويقول المثل: النبي قبل الهدية.

وفي هذا يقول (ﷺ): (لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت)[رواه البخاري].

ويقول المثل: المجانين أولاد ناس

كلنا أولاد سبعة

ويقول تعالى: ﴿كلكم لآدم وآدم من تراب﴾.

ويقول النبي (ﷺ) : (الناس سواسية كأسنان المشط).

ويقول المثل: (الكلمة الحلوة بتطلع الحية من حجرها).

ويقول النبي (ﷺ): الكلمة طيبة صدقة.

ويقول المثل: (النبي وصى ع سابع جار

النبي وصى من دار لأربعين دار

الجار للجار

الجار ولو جار

جارك القريب ولا أخوك البعيد

رغيف برغيف ولا ييات جارك جعان

ويقول تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء، الآية: (36)].

وعن أبي هريرة (ﷺ) أن النبي (ﷺ) قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه)[متفق عليه].

وقال المثل: الميت ما بتجوز عليه إلا الرحمة.

وقال النبي (ﷺ) : (اذكروا محاسن موتاكم).

وقال المثل: الناس مقامات.

قال تعالى:﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [سورة المجادلة، الآية: (11)].

وفي هذا المجال هناك العديد من الأمثال الأخرى التي تتمثل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، منها:

ما حد بسد جوره حدا

النسوان وداعة الأجاويد

يوم لربك ويوم لقلبك

ساعة لربك وساعة لقلبك

صلاة النبي أحسن

خطية الولايا بتحرق في الزوايا

الله بكسر جمل عشان عشوة واوي

وقد حملت إلينا الذاكرة الشعبية عدداً من الأمثال أيضاً، تعتمد أحكاماً عامة في الدين وترتكز في جانب منها كذلك على القضاء والقدر مغلبة إياه دائماً على الوعي والإدراك البشري من ذلك.

أدب ابنك وأحسن أدبه، ما بموت إلا تا يقصر أجله

النظرة الأولى الك والثانية عليك

اللي بنزل من السما بتتلقاه الأرض

اللي مكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين

obeikandl.com

المكتوب ما منه مهروب

مؤكدة في جانب آخر على العقلانية في الأمور والقناعة بما هو بين أيدينا.

الله بالعين ما شافوه بالعقل عرفوه

لا بارك الله في شغلة تنهي عن الصلاة

لو تركض ركض الوحوش غير رزقك ما بتحوش

لو تجري جري الغزال غير رزقك ما بتنال

وكان للجاهلين بأمور دينهم، الذين يدعون ما ليس فيهم، حصة أيضاً من اهتمامات المثل الشعبي، التي جاءت ناقدة، متهمكة، محذرة، ومتوعدة لأولئك الذين يحاولون تفسير الأمور على غير منطقها:

رايح يحج والناس مروحة

لما يجي الصبي بنصلي ع النبي

أجاك الموت يا تارك الصلاة

الصوم بلا صلاة مثل الراعي بلا عصاه

صام صام وافطر ع بصل

ع بال ما تتحفتل حنة بتسكر أبواب الجنة

من معرفته بالصحابة ترضى على عنتر

أنا مغسل ولا ضامن جنة؟

وإذا كان لكل قاعدة شواذ، فإن القاعدة المؤمنة لها شواذها أيضاً، هذه الشواذ عبرت عن نفسها، أو وصفها المجتمع بمجموعة من الأمثال التي تتوازى مع فعلهم ودرجة إيمانهم.

ينقل إلينا المثل الشعبي أن هناك نفراً من الخارجين على قوانين وتعاليم الدين، الذين استهانوا بالمشاعر العامة، واعلنوا مواقفهم الشاذة في مواجهة المجتمع، فكانوا عرضة للتهكم والاستهزاء من قبل المثل الشعبي وصائغيه.

قالوا للحرامي أحلف قال أجاك الفرج.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾.

فلان بيوكل ورق المصحف

فلان حاسب الدين خبز وزيت

وهناك أيضاً مجموعة من الأمثال التي يعتقد أنها قيلت من قبل هؤلاء الخارجين على النظام الاجتماعي، من أجل أن يجدوا لهم قانونهم الخاص، أو أنها قيلت على لسانهم أمعاناً في تورطهم، ولا يخفي حجم التناقض الذي حملته هذه الأمثال مع النصوص الشرعية:

اصرف ما في الجيب يأتي ما في الغيب
كول مع الكافر ولا توكل مع طويل الأظافر
مثل اللي اسلم الظهر ومات العصر، لا عيسى شفع له ولا محمد دري فيه
الزلمة بلا نقية زي الجمل بلا ركبة
الكثرة غلبت الشجاعة
الداء على دين ملوكهم
الداء الخبيث ملوش إلا الدوا النجس

وحتى تكتمل الصورة، فسأورد هنا مجموعة من الأمثال التي كان للدين حيز في مدلولها، وهي واضحة لا تحتاج إلى تعليق:

يا رب قيمنا يا رب حطنا، يا رب خلينا على ما أحنا
يا رب وريني ضيقي، تا أعرف عدوي من صديقي
ما في حدا بيقول يا رب اتعسني غير يا رب اسعدني
طفران وملي ما بعلم في غير ربي
ما بعلم بحالك غير ربك وجارك
بين البايع والشاري يفتح الله
الشيطان وصي ع النسوان
بيت المظالم خراب
الطمع في الدين
عمر مقسم ما دخل الجنة
إن عملت معروف استره وأن تلت معروف انشره

ما غريب إلا الشيطان
اللي بموت بموت شهيد واللي بعيش بعيش سعيد
ربنا برمي الصبر قبل البلا
اللي ما يحفظ النعمة، النعمة ما بتحفظه
بعمل السبعة وذمتها
جابيته أمه في ليلة القدر
البركة في اللمة
ما بتطلع صدقة من دار مستحقين
العصاية من الجنة

ربما لأن الدين عامل أساسي في تكوين المجتمع، أي مجتمع، لـذلك لا تـستغرب أن يكون هذا العدد الكبير من الأمثال الشعبية المستوحاة مـن نـصوص ومـدلولات دينيـة، وتتحدث عن الدين وعلاقته بالمجتمع، قد وصلت إلينا.

فالمواطن نظر إلى كثير من أمور حياته الخاصـة والعامـة، بمنظـار قربهـا أو بعـدها، تطابقها أو تناقضها مع الدين، من حيث مفهـوم الكفـر والإلحـاد أو الحـلال والحـرام أو الدنيا والآخرة أو الحساب والعقاب أو ما هـو متـوارث في ذاكـرة المـواطن وعقليتـه مـن تعاليم الدين وشرائعه، والحالة هذه لا تستغرب الاستهجان الذي يصل حد التشهير بمـن يتعارض مع الدين نصاً وتقاليداً، وخاصة في أجواء الريف والبادية، مما يجعلنا نـذهب إلى التأكيد من خلال ما هو بين أيدينا من نصوص أن المجتمع مطبوع علـى الإيمـان، ويمتلـك علاقة روحية خاصة مع الدين.

قضية أخرى، لا بد من التنويه إليها هنا، وهي عدم وجود تناقض أو تعارض علني بين الأمثال التي بين أيدينا، فـلا المـسلم يـشهر بالأديـان الأخـرى، ولا الأديـان الأخـرى شهرت بالإسلام والمسلمين، وهذا بحد ذاته أيضاً يدل على وعـي واضـح وعلـى طبيعـة التسامح التي عرف بها المجتمع العربي، ونحن هنـا نعـني الأمثـال الـصادرة عـن المـسلمين والمسيحيين تحديداً، لأنه لم يتوفر لنا ما يمكن أن نسميه أمثالاً صـاغها اليهـود، وأن كانـت هناك بعض الأمثال التي تتحدث عن اليهود ولكن بلسان غيرهم.

أمثال مسيحية

واضح من خلال الأمثال الشعبية التي بين أيدينا، أن المجتمع العربي مجتمع متسامح، يعيش فيه المسلمون والمسيحيون بانسجام وتراحم، كم كان يعيش معهم وبينهم اليهود قبل اتضاح ملامح الهجمة الصهيونية الاستيطانية على فلسطين، لذلك فإن الأمثال الشعبية المتوفرة لم تنقل لنا أي نوع من الصراع بين معتنقي الديانات السماوية، خاصة بين المسلمين والمسيحيين، الذين اعتبروا أنفسهم شركاء في الوطن والمستقبل، تماماً مثلما هم شركاء في التاريخ.

ومن نافلة القول أن المسيحيين الفلسطينيين اعتبروا أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الشعب، ولذلك فإنهم يتعاملون مع مجمل الأمثال الشعبية كجزء من تاريخهم وتراثهم الوطني والقومي، وصارت هذه الأمثال بدون هوية طائفية، إلا ما يدخل منها في صلب الموروث الديني المباشر- سواء للمسلمين أو للمسيحيين، وقد أشرت في مكان سابق من هذا الكتاب إلى أثر الدين في الأمثال الشعبية، التي تعبر عن رؤية متخصصة للمسلمين في صياغة المثل وتعميمه والإفادة من الموروث الديني في قوله ومدلوله ومعناه.

ولأن المسيحيين في فلسطين، استوطنوا بعض المدن والقرى المعروفة، التي من اهمها القدس، الناصرة، بيت لحم، رام الله، غزة، بيت جالا، بيرزيت،) وغيرها، فقد شكلوا جماعات (اجتماعية) تشترك في الهم والألم والفرح والعبادات والتقاليد والطقوس والشعائر الدينية والاجتماعية، دون أن ينفصلوا عن المجتمع الأم، ذي الأكثرية المسلمة.

وبالإضافة إلى جو التسامح الذي عاش فيه المجتمع الفلسطيني، فإن طبيعة الظروف السياسية والاقتصادية المتوترة التي واجهتها فلسطين في القرن الماضي، كانت بمثابة عامل تجميع لكل فئات المجتمع التي شعرت جميعها بالاستهداف المباشر من قبا الغزاة والغرباء الطامعين والمحتلين.

إن الوطن المشترك واللغة المشتركة والماضي والحاضر والمستقبل، وحد بين فئات الشعب وطوائفه، وجعل همهم مشتركاً.

إلا أن المتفحص لخارطة الأمثال الشعبية الفلسطينية يرى فيها مجموعة من الأمثال التي تتحدث بلسان المسيحيين، وترسم صورة لعلاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين باقي فئات وطوائف المجتمع من جهة أخرى، وفي مثل – أغلب الظن أنه صادر عن المسيحيين – يصور لنا حجم التسامح الديني بين طرفي المجتمع الفلسطيني.

أبرك السنين عيد النصارى مع المسلمين

في إشارة إلى حجم الفرح وأجواء السعادة التي تعم الوطن كله، في احتفال الطائفتين معاً، كل بالعيد الذي يعنيه.

ويبدو من قراءة فاحصة لطبيعة هذا المثل وأثره ومرجعيته، أن المسيحيين الذين يعيشون في مجتمع أكثريته مسلمة، يريدون مشاركة هذا المجتمع أفراحه، حين تقترن أعيادهم مع أعياد المجتمع المسلم، والأعياد هنا هي الأعياد ذات الطبيعة الدينية، لأن الأعياد والمناسبات الوطنية والقومية الأخرى، هي ملك للجميع، وليست لطائفة دون أخرى.

لكن صائغ المثل في الوسط المسيحي وجد أن بعض الأحداث الخاصة بالتشكيلات الاجتماعية المسيحية، غير معبر عنها بمجموعة الأمثال الشعبية المتداولة والسائدة في المجتمع، فذهب إلى صياغة بعض الأمثال لتعبر بدورها عن خصوصية معينة تهم (الشارع) المسيحي، ولكنها في القوت نفسه لا تشكل أي تناقض أو تعارض مع الشارع الآخر:

ويمكن تقسيم مجموعة الأمثال هذه اعتماداً على موضوعها إلى ما يلي:

- أمثال اتخذت من الأعياد والمواسم المسيحية مادة لها:

لا تسافر بين البلاد ما بين الغطاس والميلاد.

أن صلبت خربت

اشتغل الحد والعيد ولا تعوز أخوك السعيد

عيد التجلي بيقول للصيف ولي

- أمثال اتخذت من الأسماء والمناصب الدينية مادة لها:

كما حنا كما حنين الله ينعل الجهتين

بيجي الموت للخوري بيبعثه للخورية

اللي بتموت بنته بترقص العذرا باب داره

عبين ما تتحفتل حنه بتسكر أبواب الجنة

عبين ما تتحفف حنه بيكون القاضي معزول

كيد الرهبان غلب كيد النسوان

احذر عناد الرهبان وكيد النسوان وغضب السلطان

- أمثال اتخذت من أماكن العبادة مادة لها:

الكنيسة القريبة ما بتشفي

إن هديت صومعتي لانتف صوفاتك

- أمثال سخرت من العابثين بأمور دينهم أو المرتدين عليه:

مثل اللي اسلم الظهر ومات العصر، لا عيسى شفع ولا محمد دري فيه

قالوا أن اسلمت سارة، لا زودت المسلمين ولا نقصت النصارى

وهذا المثل قد يكون ترجمة واضحة لبيت الشعر العربي القديم الذي وصف اعتناق (حنون) المسيحي للإسلام بقوله:

ما زاد (حنون) في الإسلام خردلة

ولا النصارى لهم شغل بحنون

من قراءة هذه الأمثال يبدو واضحاً أنها قيلت لتعبر عن وعي اجتماعي تجاه بعض الممارسات والأحداث الخاصة بالتشكيل الاجتماعي المسيحي، والتي لم تجد لها أجوبة في الأمثال الأخرى.

وفي هذا تأكيد واضح على الانتماء الحقيقي لمسيحي فلسطين إلى وطنهم، وإلا لكان لهم حجم أكبر من الأمثال الخاصة بهم، ولأن الخوري أو الراهب شكل نوعاً من السلطة الدينية لدى أبناء الطائفة، فإن العامة منهم صاغوا أمثالهم الخاصة الموجهة لهذا الخوري أو ذاك الراهب، الذي ذهب بعيداً في استغلال سلطاته أو أساء في بعض الأحيان

استعمالها، وهم إذ يرفضون مثل هذا النوع من السلطة ويتهكمون عليها، فإنما يرفضون كذلك رموز السلطة الدينوية التي وجدوا في الأمثال الأخرى، ما يعبر عنها، ويبدو حجم رفضهم لبعض رموز السلطة الدينية بما تحمله بعض هذه الأمثال من تهكم ونقد لاذع للمسلكية والتصرفات:

بيجي الموت للخوري بيبعثه للخورية

كيد الرهبات غلب كيد النسوان

احذر عناد الرهبان وكيد النسوان وغضب السلطان

في الوقت الذي يبدو فيه المسيحيون متأثرين بالنظرة الاجتماعية السائدة في المجتمع الفلسطيني آنذاك، حول النظرة للبنت واستقبال ولادتها وحجم الاحتفاء بها، فهم وأن رددوا الأمثال الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع، وهي كثير ة، إلا أنهم لم يكتفوا بها، بل ذهبوا إلى إعطاء هذه النظرة حالة من القدسية حين قال المثل:

اللي بتموت بنته بترقص العذرا باب داره

ويبدو واضحاً أن صائغي المثل الفلسطيني سواء من المسلمين أو المسيحيين، ذهبوا إلى إطلاق اسم (النصارى) على المسيحيين في أغلب الأمثال التي تناولت اهتماماتهم أو تحدثت عنهم لما في كلمة (النصارى) من بعد وطني أيضاً في نسبة المسيحيين إلى (الناصرة) المدينة الفلسطينية التي ناصرت السيد المسيح وحمته ودافعت عنه. وقد ورد اسم (النصارى) في مثلين اقترنت التسمية فيهما مع اسم (المسلمين) وهذا واضح بالقول:

ابرك السنين عيد النصارى مع المسلمين

قالوا أن أسلمت سارة لا زودت المسلمين ولا نقصت النصارى

وواضح أن المسيحيين – الذين يقفون وراء صياغة مثل هذه الأمثال – هم الذين يطلقون على أنفسهم اسم (النصارى) فيما وردت كلمة المسيحي واضحة في مثل آخر قيل على لسان المسلمين، ويحدد العلاقة الاجتماعية بين المسلم من جهة وبين المسيحي واليهودي من جهة أخرى، حيث يقول موجهاً كلامه للمسلم:

اتعشى عند اليهودي ونام عند المسيحي

ومن خلال هذا النوع من الأمثال المتسامحة يمكن القول أنها تنطق ليس بلسان المسيحيين الفلسطينيين فقط، بل تبدو تعبيراً واضحاً عن واقع المسيحيين العرب الذين عاشوا في هذا الوطن منتمين لتاريخه ومستقبله، ومدافعين عنه في وجه حملات الأعداء كافة، وهي صورة ناطقة توضح حجم التسامح السائد في المجتمع العربي بين معتنقي الأديان السماوية في وطن شهد ولادة هذه الديانات على أرضه.

obeikandl.com

obeikandl.com

اليهود

فرق المثل الشعبي الفلسطيني بين اليهودية كديانة سماوية، وبين اليهود كـأفراد، وفي هذا قدم صائغ المثل الشعبي صورة واضحة عن وعيه، وفهمه لطبيعـة العلاقـة، ومـن ثـم طبيعة الصراع بين الطرفين، وفي الوقت الذي خلت فيه الأمثال الـشعبية الفلـسطينية مـن أي مثل يتهكم على اليهودية كديانة سماوية، فإنها جاءت ببعض الأمثال التي تحدثت عن اليهودي كشخص ضمن نظرة اجتماعية تعتمـد في بعـض جوانبهـا علـى مـوروث ديـني وأخلاقي.

لكن هذه الأمثال جميعها لم تتعامل مع اليهودي كعدو كونـه يهوديـاً فقـط، بـل أن العدو هو الصهيوني مغتصب الأرض والحقوق.

وأطلقت الأمثال الشعبية صفات كثيرة على اليهودي، فهو مثـال للخـسة والطمـع والشراهة واللؤم، وهو الذي يحيك الدسائس ويبتعد عن المواجهـة المباشـرة، لـذلك فـإن التعامل معه يظل تعاملاً حذراً يحمل في طياته كثيراً من ألوان المخاطرة:

ضربوا اليهودي بطوس لبن، قال من زمان أنا مشتهيه.

أوعد اليهودي بالكفن يموت

هذه صورة م نصور الطمع التي ارتبطت بشخـصية اليهـودي في الـذاكرة الـشعبية، تقابلها صورة أخرى من صور الخبث والحقد التي تشكل جزءاً من شخصيته أيضاً:

أخبث من يهود خيبر

أخبث من أهل السبت

مثل يهود خيبر

واليهودي الذي يسعى إلى اكتناز المال والتعامل بالربا والمحرمات، يخاف على نفسه وماله، ويهرب من خوض الصراعات العلنية والمباشرة، مكتفياً بحبك الدسائس سراً، ويعمل على إشعال الفتن والصراعات ليظل هو الرابح، وعندما يحدث أن تتغير الصورة أو يشذ أحدهم عن القاعدة، فإن المثل الشعبي يذهب إلى إعلان استهجانه واستغرابه من ذلك بالقول:

يهودي وقبضاي!

أي أن صفة (القبضاوي) أو (الفتونة) لا تتفق حسب صائغي المثل الشعبي مع شخصية اليهودي الذي ارتبطت تصرفاته في المجتمع الذي يعيش فيه بالظلامية.

غير أن صائغ المثل المسلم أعلن موقفه واضحاً من اليهود والمسيحيين معاً، منطلقاً من وعي ديني واضح ومن احترام لا يقبل الشك للديانات السماوية ومعتنقيها، فهو يقول:

اتعشى عند اليهودي ونام عند المسيحي

فإذا كانت النظرة متطابقة إلى حد كبير بين ما يراه المسلمون واليهود، في العلاقة مع الطعام، من زاوية الحلال والحرام، إلا أن اليهودي كشخص يبقى غير آمين في علاقته مع الآخرين، ويمكن له أن يغدر بضيفه تحت جنح الظلام، إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهنا نبه المثل إلى أن المسيحي يظل مأمون الجانب، حينما يتعلق الأمر في الحياة المشتركة.

واليهود يتعاطفون مع بني جنسهم ويفضلوهم على غيرهم من عباد الله، مهما كانت التناقضات فيما بينهم، اعتماداً على المقولة الزائفة التي أقنعوا أنفسهم، ويحاولون إقناع الآخرين بها، وهي أنهم شعب الله المختار، لذلك قال المثل في هؤلاء:

بموت اليهودي وخاطره في دينه

من الواضح أن هذه الأمثال قد استقرت في الذاكرة الجمعية قبل بدء الغزوة الصهيونية الاستيطانية لفلسطين، وقبل بروز الخطر الصهيوني على الوطن العربي، لأنها جاءت خالية من النظرة إلى اليهودي الصهيوني كعدو للوطن والشعب، ويبدو أن مرحلة الصراع المباشر منذ أوائل القرن العشرين، لم تنتج أمثالاً شعبية اتخذت من الصهاينة وعدوانهم مادة لها، أو أنني لم أتمكن من العثور عليها أن وجدت، وهذا يدفعنا إلى القول أن الشعب الفلسطيني إجمالاً اكتفى بمقارعة الصهيونية بالسلاح والمواجهات المباشرة والمعارك التي لم تتوقف، موظفاً في سبيل ذلك الأغنية الشعبية والقصيدة، وغير ذلك من الفنون التي أنتجها الشعب، ولم يكن متفرغاً لصياغة الأمثال وتعميمها.

وقد يأخذ هذا التفسير دقته ومنطقيته من قراءة ما أفرزته الذاكرة الشعبية من أغنيات ومواويل، اتخذت من الصهاينة وحلفائهم البريطانيين مادة لها.

obeikandl.com

السلطة

تميزت العلاقة بين الفلاحين والسلطة بتذبذبها، وعدم انسجامها، إلى درجة تقاطعها مع أهداف وغايات ومصلحة كل منهما، والعلاقة بين الفلاحين والسلطة، ليست مقتصرة على هذا الجانب فقط، بل تكاد الأمثال الشعبية تكون في مجملها، نوعاً من الصراع الخفي بين السلطة ورموزها ومنهجها من جهة، والفلاحين وأدواتهم ووعيهم من جهة أخرى، وهذا الصراع يبدو واضحاً جداً في الكثير من هذه الأمثال التي بين أيدينا.

فمرة يذعن الفلاحين لأوامر وتعليمات رموز السلطة ويطيعونها، وبالتالي يسيرون في خط رغباتهم ومصالحهم، ومرة يحاولون التمرد على تلك الأوامر والتعليمات، ويظهر الصراع بينهما، أما خفياً وأما جلياً، الأمر الذي يجعل المعركة بينهما أكثر حدية ووضوحاً.

لكن النتيجة ظلت دائماً محسومة لصالح رموز السلطة وأصحابها، وذلك لمجموعة من الاعتبارات:

- سيادة مجموعة الأمثال الشعبية التي تنتمي لطبقتهم وتدافع عنها.

أنهم الطرف الأقوى.. الذي يملك الأرض والمال والجاه والنفوذ، وبالتالي ما يمكن الاصطلاح على تسميته بوسائل الأعلام أيضاً.

مصالحهم بتشابكاتهم هي الأكثر وضوحاً، وبالتالي الأكثر حاجة للرعاية خاصة أن الفلاحين بمعظمهم لم يكن لديهم ما يخسرونه مادياً أمام سيطرة الإقطاع.

وحتى تتضح صورة السلطة بشكل واضح، لا بد من تحديد رموزها الذين تعامل معهم المثل الشعبي، لنستطيع فهم إبعاد المعركة وأطراف الصراع بين الجانبين، فهنالك مثلاً: الملك، الوالي، السلطان، الأمير، الباشا، الشيخ، الضابط، المختار، الإقطاعيون، الأغنياء، القاضي، والرجل أيضاً الذي عبر عن نوع من السلطة تجاه زوجته وأطفاله.

إن قراءة في مجموعة الأمثال الشعبية التي بين أيدينا نلاحظ فيها اتجاهات ثلاثة في ما يتعلق بالنظر إلى السلطة والعلاقة معها.

أولها: أمثال تتحدث بلسان السلطة، تذكر ميزاتها، وتفوقها واستحقاقاتها بالقيادة والطاعة والنفوذ.

ثانياً: أمثال تتحدث عن السلطة، بلسان اتباعها من الفلاحين الذين انحازوا إلى خندق السلطة، وعملوا على تجميلها.

ثالثاً: أمثال تتحدى السلطة وتحاول التقليل من شأنها ومن سطوتها، وهذه الأمثال قالها الفلاحون الذين اصطدمت مصالحهم مع توجهات السلطة ونفوذها.

الاتجاه الأول:

وهو الذي صاغ بنفسه الأمثال الشعبية التي ترسم صورة رموز السلطة، وحاول تعميمها بطرائقه الخاصة بين الناس.. معطياً هالة استثنائية لأصحاب السلطة.. وكأنها حكر عليهم لا يجوز التقرب منها أو المساس بها.

الناس مقامات

من شبّه حالو بالملك هلك

لكن هذا الاتجاه لم يكتف بتزيين صورة رموزه في أوساط العامة، بل يذهب إلى الاستهانة بأية محاولة تدعو إلى خلق (قيادات بديلة) تخرج من صفوف الفلاحين:

عمره ما بطلع من النور خطيب

حطوه بالصدر لقيوه بالعتبة

الاتجاه الثاني:

وهي مجموعة الأمثال الشعبية التي قيلت عن رموز هذه السلطة، وأغلب الظن انها قيلت على غير لسانهم، قالتها مجموعة من الفلاحين الذين شعروا بالانهزامية أمام سطوة السلطة ونفوذها، أو أولئك الذين وظفتهم السلطة للحديث عنها وعن مزاياها في الأوساط الشعبية.

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الأمثال الشعبية من حيث عددها هي الأكثر، قياساً إلى أمثال الاتجاه الأول، وهذا يمكن تبريره بما يلي:

- أن رموز السلطة أنفسهم لم يكونوا متفرغين لصباغة الأمثال وتعميمها، وذلك لانشغالهم في جمع الثروة والدفاع عن مصالحهم ووظيفتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

- إن الفلاحين المرتبطين بهذا الاتجاه هم الذين قالوا مثل هذه الأمثال وعمموها ووقفوا وراء انتشارها، أما أتقاء لشر هؤلاء، وأما تفاقاً وتقرباً وطمعاً في الحصول على بعض الامتيازات، في ظل غياب ميزان الوعي الطبقي ووضوح اتجاهات الصراع بين السلطة وخصومها.

ويمكننا وهنا إعطاء صورة رموز السلطة من خلال أمثالها الخاصة، فهي مدعاة للفخر والمباهاة، تعطي جاهاً ونفوذاً لمن يتقرب منها أو يتعامل معها، خاصة إذا ما عرفنا أن الناس مع الواقف.

فكيف إذا كان هذا الواقف هي (السلطة ورموزها)، فكان المثل الشعبي داعياً إلى الامتثال لآراء السلطة، مسفها من مقاومتها، وعاداً أن خندقها وهو الأقوى وبالتالي فإن نهجها هو السائد:

ع قد فراشك مد أجريك

حط رأسك بين هالروس وقول يا قطاع الروس

أنا أول من أطاع وآخر من عصا

العين بصيرة والأيد قصيرة

مهما أجا من الأمير كثير

الاتجاه الثالث:

وهو اتجاه المقاومة، هذا الاتجاه استطاع أن يفرز أمثاله الخاصة به، من القاعدة الشعبية العريضة، الأكثر تضرراً، وصاحبة المصلحة الحقيقية في تأجيج الصراع والذهاب بها إلى مدياته الحقيقية.

لكن هذه المقاومة، قد جاءت من خلال الأمثال الشعبية المتوفرة، عبر عدة مراحل اتسم به هذا الصراع، ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1) اهتزاز صورة السلطة ورموزها أمام الشعب، وانكشاف الكثير من عيوبهم التي أسهمت في تقديم الصورة الحقيقية لهم.

ع بالي الباشا باشا وأثاري الباشا زلمة

ثم أن الفلاحين بدأوا يدركون حقيقة هذا الجاه والنفوذ الذي يتمتع به رموز السلطة، عادين إلى المال هو أحد أهم أركان السلطة، فمن استطاع الحصول عليه، استطاع أن ينافسهم وأن يقف في صفهم.

اللي بيدفع فلوسه بنت السلطان عروسه

ويمكن عدّ هذه الحقيقة هي القاعدة التي ارتكزت عليها مقاومة الفلاحين لرموز السلطة خاصة وقد أدركوا أن الكثير من أسباب النفوذ التي يتمتعون بها، وفي المقدمة منها المال، هي من جهد الفلاحين وعرقهم، وعليه فقد أخذ الصراع في ما بعد أشكالاً عدة، ووسائل مختلفة، لم تكن جميعها في مصلحة رموز السلطة وأدواتها.

2) مرحلة التكاتف الأسري، هذه المرحلة التي اكتفت بالتحريض ومحاولة استفزاز الفلاحين وتنمية وعيهم، وإظهار الخصم على أنه ليس (سوبرمان) أي محاولة كسر الحاجز النفسي الذي عمل رموز السلطة على وضعه في مواجهة الفلاحين.

وبعبارة أخرى يمكن تسمية هذا الاتجاه، المقاومة السرية، أو النضال السلبي، وهذا واضح من خلال مجموعة الأمثال الشعبية المتوفرة التي حاولت تنمية الشعور بالندبة عند الفلاحين، والعمل على توحيد قوتهم وصفوفهم.

اللي بدو يناطح ما يخبي قرونه
الشكوى لغير الله مذلة
ما بيضيع حق وراءه مطالب
لا يموت الذيب ولا بتفنى الغنم

الحيط الواطي كل الناس بتنطه

3) مرحلة إشهار الصراع الذي أخذ في هذه المرحلة الصفة العلنية والمواجهة المباشرة ويبدو من قراءة الأمثال الخاصة بهذه المرحلة، أن خطط للصراع قد ضمن سلامة القاعدة الشعبية، فذهب الآن إلى توسيعها وحاولت الأمثال التي تناولت هذا الموضوع التأكيد على أن رموز السلطة ليسوا بشراً استثنائيين، لأن هناك من هو فوقهم، ومن هو أقوى منهم، إشارة إلى الله عز وجل، وتميزت هذه المرحلة وأمثالها بالحدية والوضوح والإصرار على المواجهة.

كلنا أولاد تسعة
ما كبير إلا الجمل
اللي ما بعدك لا تعده ولو كان السلطان جده
ما بقطع الرأس إلا اللي ركبه
ما حدا بموت إلا تاتيجي ساعته

والذي ساعد على تأجيج روح المقاومة لدى الفلاحين، أنهم اكتشفوا مبكراً الكثير من عيوب رموز السلطة وأركانها، لذلك عمدوا إلى صياغة مجموعة من الأمثال التي تكشف هذه العيوب، وتجعلها متداولة بين الناس الذين سارعوا إلى تعميمها كحلقة أولى من حلقات المقاومة وكسب الرأي العام.

لقد أظهرت هذه المجموعة من الأمثال رموز السلطة على أنهم مجرد لصوص مرتشين أحياناً، الأمر الذي يسهم في فقدانهم لمصدر الهيبة والقوة التي كانوا يتمتعون بها سابقاً، والتي حاولوا التمترس خلفها طويلاً، وكشفت نقاط ضعفهم التي جعلتهم عرضة للتهكم والسخرية من عامة الشعب، وساهمت في كسب الكثير من مواقف الفلاحين الذين كانوا مترددين أو سلبيين:

حاميها حراميها
لولا النواطير كانت الكروم بتحمل قناطير
كبر العمة ووسع الذمة
البرطيل حل دكة القاضي
من قلة الخيل شدوا ع الكلاب سروج
حاكمك ظالمك

obeikandl.com

الموت

الموت سنة من سنن الحياة، بل هو أنصع وأقوى حقيقة في حياة البشر، لذلك لا نستغرب هذا العدد الكبير من الأمثال الشعبية التي تحدثت عن الموت، وكل ما يتعلق به من جنازة وعزاء وغير ذلك.

وشعبنا مثل غيره من الشعوب المسلمة، نظر إلى الموت من زاوية دينية، حددها له الإسلام، فما علاقة الموت عند أبناء شعبنا بالدين؟ أنها علاقة لا تخرج عن الدائرة التي فسر بها الدين ظاهرة الموت، ولا تقاطعها، فالأمثال التي تحدثت عن الموت، كانت واضحة وضوح الموقف الديني من هذه الظاهرة، مما يجعل هذه الأمثال ترجمة تكاد تكون حرفية، لما جاء في النصوص الدينية:

الموت حق

الموت كاس دايرع كل الناس

ما حدا بموت إلا تاتيجي ساعته

ما بقطع الرأس إلا اللي ركبه

وهنا تبدو الحالة استسلامية للقدر، مؤمنة به، مقتنعة بما يصيب الناس جميعاً، سواء كانوا من الفقراء أم الأغنياء لأن الموت لا يستثني أحداً.

وفي نظرة تكاد تكون متطرفة، في ما يتعلق بمفهوم الحياة، ودور الإنسان فيها، فإن المثل الشعبي عند الموت أفضل من حياة لا قيمة لها، فمن لا يقوم بدوره كاملاً في الحياة يكون الموت بالنسبة له أفضل من حياته.

الموت ولا المذلة

فلان عايش من قلة الموت

ومن هذا يتضح أن المثل الشعبي يفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة التي نبه عليها الدين أيضاً، مؤكداً على دور الفرد في حياته الدنيوية بما ينفع نفسه وبما ينفع الآخرين الذين يشاركونه الحياة.

وانطلاقاً من (اذكروا محاسن موتاكم) التي يرددها المواطن ويؤمن بها، فإن المثل الشعبي تعامل مع الميت عاداً إياه الأفضل بين أقرانه، وهو صاحب الخصال الحميدة، ربما لأن الشعور العام بحقيقة الموت واستحالة عودة الميت هي التي أضفت عليه كل هذه الحسنات:

ماتت النوارة وظلت الفوارة

اللي استحوا ماتوا وظلوا قليلين الحيا

الميت خيار أهله

وللموت، كما جاء في المثال الشعبي أسباب عديدة، حيث يجعل الله لكل شيء سبباً، واعتماداً على أنه تعددت الأسباب والموت واحد، فقد تعامل المثل الشعبي بالأسباب التالية:

1) **الشهادة في سبيل الدين والوطن:**

اللي بموت شهيد واللي بعيش بعيش سعيد

وهذه أفضل الميتات في نظر الناس، لما للشهادة من قيمة دنيوية وأخروية، حددتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

2) **عدم تقدير عواقب الأمور:**

كثيراً ما يكون الجهل بعواقب الأمور وعدم تقديرها جيداً سبباً في الموت:

قتيل بطنه ولا رحم

كثر النط بقصف الرقبة

ظل يقول أنا حتى وقع واتفنا

3) **الطمع بمتاع الدنيا:**

أوعد اليهودي بالكفن يموت

وبالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى للموت، لكن المثل الشعبي لم يتطرق إليها، على اعتبار أن الموت حقيقة لا تحتاج إلى تذكير، ولا تحتاج إلى دلائل، وهو كأس سيشرب منه كل الناس آجلاً أم عاجلاً.

وإذا كان الموت بحقيقته المؤلمة سبباً للحزن والمرارة والحداد عند بعض الناس، بسبب فقدان عزيز أو قريب، فإنه يمكن أن يكون ذا فائدة لبعضهم الآخر، ليس من باب الشماتة التي رفضها المثل بقوله:

اللهم لا شماتة

وإنما من زوايا وأبواب أخرى، دنيوية مادية، وقد تكون تافهة أحياناً، ومن هذه الفوائد كما حددها المثل الشعبي:

1) فائدة لأهل الميت، خصوصاً إذا كان أهل الميت امرأة، لما في ذلك من نظرة دونية متخلفة للمرأة، التي يمكن أن تأتي بالعار إلى ذويها، ولأن وأد البنات حرام، فإن الحل الأمثل يكون بالموت الطبيعي:

ماتت وليتك من صفاية نيتك

2) هناك فائدة دنيوية أخرى للمتربصين بالميت، خاصة من أعدائه والطامعين فيه، أسقطها المثل على الحيوانات، وهي صالحة للتعميم على البشر أيضاً:

موت الحمير فرج للكلاب

3) إن الموت يذهب بالشهود، مما يفسح المجال واسعاً أمام الكذابين والإدعياء للاستعراض وقلب الحقائق كما يريدونها وكما تخدمهم:

ما أكذب من شاب تغرب إلا شايب ماتت أجياله

قال يا ابني شرفني، قال ليموت اللي بعرفني

وبقدر ما يكون الموت مؤلماً لدى عامة الناس، فإنه يمكن أن يتحول إلى أمنية عند بعضهم، ليس لانتفاء دوره في الحياة، بل لسبب شخصي جداً، وهو إلا يقعوا تحت طائلة الحاجة، حتى من أقرب الناس إليهم، وحتى لا يكونوا مدعاة للشفقة عند المرض أو الشيخوخة:

موت الفتى في عزه مثل ليلة عرسه

أو قد يتحول إلى أمنية عزيزة أو مطلب بعيد المنال، مما يعرض طالبه للسخرية والتهكم:

موت يا حمار تايجيك العليق

ولأن الشخص مقتنع بأن الموت لا بد آت، وأن ساعته مقدرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ، فإن المثل الشعبي أيضاً قدر هذه الحقيقة وتعامل معها بثقة واضحة واستسلام أكيد لقدرة الله وقضائه.

أعطيني عمر وزتني في البحر

ومع هذا، فقد تعامل المثل الشعبي أيضاً مع الموت من زاوية أخرى، معتمداً على قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ متخذاً من ذلك التفسير السلبي للتشبث بالحياة، حتى لو كان ذلك على حساب القيم والمبادئ والأخلاق:

قتله وتفوت ولا حد يموت

مية جبان ولا الله يرحمه

جخوا ولا تموتوا حزانى

ويتضح من هذه الأمثال أن الجهة التي تفترض نفسها في صراع مع الفلاحين والفقراء، هي التي تقف وراء تعميم مثل هذه الأمثال وصياغتها من أجل تحييد بعض هؤلاء في معركة الصراع الدائرة بينهم، ولاشك في أن مثل هذه الأمثال قد لقيت لها صدى في نفوس الضعاف والمهزومين، نتيجة ضعفهم أولاً، ونتيجة قوة تأثير هذه الأمثال فيهم ثانياً، لأنها وغيرها بالتأكيد – قد امتلكت من وظف نفسه نشرها وتعميها بين أوساط الفلاحين والفقراء.

وحرص المثل الشعبي على تبيان وتوضيح مجموعة من القيم التي يجب التعامل بها مع الميت وأهله، ومع من يراه، كدروس أخلاقية تهم الجميع، وحتى يتعظ بها الأحياء ولأن هذه الدروس جاءت للأمثال الشعبية، أما عبر بوابة الدين التي أخذ منها المثل

الشعبي كثيراً، وأما عبر بوابة التجارب والأحداث الكثيرة التي مرت على الشعوب والأمم في حياتها وتأريخها:

إكرام الميت دفنه

الميت ما يجوز عليه إلا الرحمة

الضرب في الميت حرام

الحي أبقي من الميت

ولأن الفلاحين هم الذين يتبنون أخلاقيات المجتمع ويدافعون عنها بشكل أساسي، من دون نفي هذا عن بقية شرائح الشعب، فإنني أرجح أن مثل هذه الأمثال قد قيلت على لسان هؤلاء الفلاحين.

لكن هل الناس متشابهون؟ ولأن الجواب مقترن حتماً بلا، فإن المثل الشعبي حاول أن يجد مع الموت ما يفسر بعض طبائع الأموات حيث قال:

بموت الزمار وأصابعه بتلعب

بموت اليهودي وخاطره في دينه

مما يعني أن الموت ليس نهاية المطاف، ويمكن أن يتغلب على الجسد ولكنه يقف متردداً أمام بعض القضايا والتفاصيل التي انتبه لها المثل الشعبي.

وتأكيداً لفلسفته الدينية التي حاول المثل الشعبي أن يعبر عنها في فهمه للموت ونظرته إليه، فإنه يعود مرة أخرى ليقول بحقيقة مسلم بها، مفادها أن الموت هو نهاية كل حي، فقيراً أو غنياً، كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأةً، سيداً أو مسوداً.

أبو الصرطلي وأبو فله في القبر متدلي

وهذا قد يكون ترجمة واضحة لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

وحتى في الموت، الذي يفترض أن يتساوى فيه الجميع، فإن الفقراء والفلاحين ثم يسلموا من سخرية أصحاب النفوذ، خاصة إذا ما كانت مراسم التشييع والعزاء بالنسبة للميت، خارج إطار المألوف في نظر الأغنياء.

الميت كلب ولجنازة حامية

داعين عبر وسائلهم وأمثالهم إلى أن يكون:

الميت كلب والمعزية نورية

وهذا يعكس بوضوح بعض مظاهر الصراع حتى في الموت وملحقاته، التي يستكثر فيها أصحاب النفوذ على الفقراء الإعلان عنها، لأن القاعدة الشعبية يجب أن تقر بحقيقة فرضها أصحاب السلطة والنفوذ وهي أن:

تعريص الغنى وموت الفقير ما حدا يدري فيهن

رافضين المساواة حتى في الطريق إلى القبر، الذي هو نهاية الجميع، ويمكن للموت أن يكون سبباً في الكثير من الأمور الحياتية والدنيوية التي ترافقه وتعني به، من قريب أو بعيد، بشكل مباشر أو غير مباشر منها:

1) لقمة العيش:

وهنا نظر المثل إلى الذين جعلوا لقمة عيشهم مقترنة بالموت، نظرة فيها من السخرية بقدر ما فيها من التهكم.

تاجرنا بالكفان بطلب الناس تموت

أنا مغسل ولا ضامن جنة؟

2) القطيعة:

قد تنتهي بوفاة الميت بعض الصلات والعلاقات الاجتماعية، وأن كان المثل هنا قد أسقط موقفه على الحيوان، فإن الإنسان معنى به بشكل أكيد.

ماتت الحمارة وانقطعت الزيارة

3) البعد عن الأمور الدنيوية التي قد تخلق المشاكل لصاحبها:

والمثل أن كان سلبياً يعبر هنا عن مواقف اجتماعية مباشرة.

امشي بجنازة ولا تمشى بجوازة

ولأن الموت حق، ولأنه يولد الحزن والمرارة، فقد حاول المثل الشعبي التخفيف من وطأته في مجموعة من الأمثال موجهة إلى أهل الميت وأقرانه.

الموت مع الجماعة رحمة

اللي خلف ما مات

عاش غني ومات فقير

مؤكداً من جهة أخرى على استمرار الحياة وبالتالي استمرار وسائل الصراع فيها، بين الخير والشر، فالموت لفرد أو لمجموعة لا يوقف عجلة الحياة، ولن يكون نهاية الدنيا:

لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم

اللي فات مات، والخير بالجاي

obeikandl.com

obeikandl.com

الأسرة

أ) استقبال المولود

لقد انحاز المثل الشعبي إلى الذكور على حساب الإناث، ربما لأن صائغي الأمثال هم في الغالبية من الفلاحين الذين فضلوا الولد على البنت لعدة اعتبارات.

فالولد يساعد أباه في العمل، وبالتالي فإنه يعينه على مواجهة قسوة الحياة، فبالإضافة إلى أنه يمثل (أداة إنتاج) فهو يمثل كذلك (صفة الحماية) فالأولاد الذكور الذين سيصبحون حتماً رجالاً في المستقبل، هم من سيدافع عن الأهل والممتلكات في مواجهة اللصوص أو الإقطاعيين أو الغزاة.

والبنت إضافة إلى أنها لا تنتج، فإن مصيرها خارج بيت أهلها، وبالتالي فإن خيرها، إذا كان هناك خير منها، فهو لزوجها وأهله في المستقبل، ثم أنها قد تكون معرضة للسبي أو الاختطاف أو الاغتصاب، مما يجب العار على أهلها وأقاربها، وقد تكون أداة ضغط على والدها إذا ما رغب أحد الأغنياء في الزواج منها مثلا.

لن أذهب إلى القول بأن هذه العادة، هي امتداد لما كان العرب يمارسونه قبل الإسلام، حين كانوا يتشاءمون من البنات، ويذهب بعضهم إلى وأدهن، فالعرب شعب مؤمن بالله، وهم يرفضون قطعاً ممارسات الجاهلية، لكن الظروف الاجتماعية والحياتية القاسية التي جعلت الولد الذكر دوراً أهم بكثير من أخته الأنثى، جعلت الاهتمام به والاحتفاء بولادته واضحاً عند مجمل العائلات.

وإذا كانت هذه العادة قد خف تأثيرها الآن بسبب اختلاف ظروف الحياة من جهة، ودخول المرأة سوق العمل من جهة أخرى، إلا أن هناك الكثير من الآباء وخاصة في الريف والبادية، مازالوا منحازين إلى إنجاب الذكور، ويبدو الانفعال والتشاؤم عليهم عند حدوث العكس.

وقد تتحمل الأم – التي تنجب – المسؤولية الكبرى في هذا المجال، لذلك تظل خائفة على مستقبل علاقتها بزوجها، ولن تطمئن حتى تنجب له ولداً.

وقد قال المثل الشعبي على لسان امرأة قد تكون انجبت لتوها:

(لما قالوا لي ولد انسند ظهري، ولما قالوا لي بنت انهالت الحيطة علي).

هكذا صور المثل الشعبي وقع الخبر على الأم، الذي لن يكون أخف منه على الأب وعائلته.

وتؤكد الوقائع أن كثيراً من الزيجات اللاحقة، حدثت بسبب عدم قدرة الزوجة على إنجاب ولد ذكر، هذا إذا لم يحدث الطلاق أصلاً، مع أن المرأة لا تتحمل وحدها النتيجة، ولأن المطلوب ذكراً فقد تقول جدته أو عمته مثلاً:

للصبي فرحة ولو أنه قد القمحة

فيما يذهب المثل إلى المفاخرة والمباهاة التي تتبعها استحقاقات اجتماعية، كأن يقول الأقارب والأصدقاء والجيران:

مبروك يا أبو فلان أجاك ولد

هذا الإعلان يأتي جهاراً، لكي يسمع الآخرون، في قصدية مسبقة لنشر الخبر وتعميمه، فيما يسود الصمت أجواء البيت الذي تنجب الزوجة فيه بنتاً.

ولعل أسوا أنواع الاضطهاد هو ذلك الذي تتعرض له زوجة غير محبوبة من زوجها وأهله، عندما تنجب بنتاً الأمر الذي يجعل الاضطهاد الموجه لها مزدوجاً وقد رسم المثل هذه الصورة بقوله:

مبغوضة وجابت بنت

وتظل الدعوة المحببة عند النساء تحديداً، هي الدعوة لإنجاب الذكور، وغالباً ما تحدد النساء في دعواتهم التي ذهبت مثلاً، نوعية المولود الذي يتمنينه للمرأة التي يرزنها أو يتعاملن معها.

الله يعوض عليك صبيان

ب) المقارنة بين الولد والبنت

بما أن المثل منحاز أصلاً للأولاد الذكور، فقد جاءت الأمثال جميعها في صالحهم، مفضلة إياهم على البنات في كل الأحوال، ونستطيع هنا أن نقرأ الأسلوب الذي تعامل فيه المثل الشعبي مع الولد والبنت معاً.. فهو يقول:

دلل ابنك يغنيك ودلل بنتك بتخزيك

ألف ولد مجنون ولا بنت خاتون

أم الولد بخير وأم البنت بويل

ابن ابنك الك.. ابن بنتك لأ..

هذه الأمثال تعطينا صورة واضحة عن نظرة صائغي المثل الشعبي إلى البنت، دون أن يدرك هؤلاء أن هذه البنت هي الأم والزوجة، لذلك فإن فلسفة المجتمع الذكوري وسطوة الرجل في المجتمع، جعلت مهمة صائغي المثل سهلة، كونها تدغدغ شيئاً ما من كبريائهم المزعوم، وتكريساً لهذه الصورة فقد ساعدوا كثيراً في نشر مثل هذه الأمثال وتعميمها دون أن يعوا أنهم بذلك يسعون إلى تعطيل نصف المجتمع وتغييب قوة فاعلة فيه.

إلا أن النظرة للبنت لم تتوقف عند هذا الحد، بل كانت تبدو أكثر قسوة في تفسيرات واعتمادات أخرى ذهب إليها المثل حين يقول:

البنت بتتعب أهلها ولو ماتت

هم البنات للممات

صباح الحية ولا صباح البنية

ماتت وليتك من صفاية نيتك

اللي بتوكله البنت خسارة

سترة البنت تجويزها أو موتها

خير البنت لجوزها وشرها لأهلها

لم يكن المثل منحازاً إلى الولد، الرجل فقط، بل أننا نجد هنا صورة قاسية ومؤلمة يضعها صائغو هذا المثل في مواجهتنا، والسؤال الذي يقفز أمامنا، لماذا كل هذه القسوة ومن هو المستفيد فعلاً من وراء صياغة ونشر وتعميم مثل هذه الأمثال؟!

ما من شك أن الرجل هو الذي صاغها، لكن أي نوع من الرجال، أننا سنلاحظ التناقض الكبير بين هذه الأمثال وغيرها ممن تتعامل مع الزوجة أو الأم، أليس الرجل هو الذي صاغ الحالة الثانية من الأمثال أيضاً؟ وهل الأم والزوجة لم تكونا بنات من قبل؟

استطيع القول أن الجهل وحده هو الذي يقف وراء صياغة كل هذه القسوة في الأمثال التي تتخذ من (البنت) موضوعاً لها، والخوف أيضاً من سطوة الإقطاع، عزز من هذه الرغبة، وأكاد أجزم أن الفقراء وحدهم يقفون خلف مثل هذه الأمثال، لأنهم المعنيون أكثر من غيرهم بالشرف وضرورة العمل والحاجة إلى العزوة التي لم يوفرها المال.

لكن المثل الذي قدم لنا صورة قاسية عن البنات، تراه يذهب في مثل واحد إلى محاولة إعادة الاعتبار لهن، حين يقول:

البنت الحلوة نص مصيبة

وهكذا نرى أن جمال البنت لم يشفع لها، وأن قلل من الهالة السوداء المحيطة باستقبالها والتعامل معها، ومع ذلك ظلت في نظر أهلها (مصيبة) أو (نصف مصيبة) أنها عبء يجب التخلص منه، والتخلص هنا بطريقتين:

أما بالزواج، وبالتالي حمل همها والتفكير بها باستمرار

وأما الموت، وهو الخيار الأفضل والأكثر قبولاً عند الجميع، لكن المثل لم يذهب إلى تحريض الآباء على قتل بناتهم، وإنما المحظوظ منهم من تموت ابنته بشكل طبيعي ومهما كانت صورة الولد سلبية عند الأهل، فإن المستقبل يحمل له دروساً مختلفاً

الولد لو لعب في خراه في خير من وراه

ومع كل هذا الانحياز غير المبرر للولد، إلا أن المثل حاول أن يعطي صورة عقلانية في بعض الأحيان عن بعض الأولاد الذين يسئيون لأنفسهم ولأهلهم ولمجتمعهم فهو يقول:

الولد العاطل بيجيب لأهلة المسبة

هذا المثل يمكن أن يكون قد قيل على لسان أب فشل في تربية أولاده، وحزن حينما اضطر لمقارنتهم مع أولاد غيره من الأقارب والجيران.

جـ) النسب

حاول المثل هنا أن ينقل صورة واضحة عن طبيعة العلاقات الأسرية في المجتمع، وفي أقواله كثير من الحكمة التابعة من ترجمة حقيقية للواقع.

وقد ذهب المثل إلى تحديد خارطة علاقات القربى في المجتمع والحديث عنها بشيء من التفصيل، ولعل ذلك يعود إلى أن المجتمع الذي قيلت فيه هذه الأمثال، هو مجتمع عشائري تحتل رابطة الدم فيه مكانة متقدمة، لذلك كان واضحاً في تحديد اختيار الزوجات اللواتي سينجبن أطفالاً يدخلون في سجلات العائلة والعشيرة، وكان واضحاً أيضاً في رسم صورة علاقة القربى وأولوياتها، فهو يقول:

عمر الدم ما بيصير ميه

أنا واخوي ع ابن عمي وأنا وابن عمي ع الغريب

أخوك أخوك لا يغرك صاحبك

ما أعز من الولد إلا ولد الولد

ما بعرف رطني إلا ابن بطني

قريبك أن مضغك ما يزلطك

ما بحن ع العود إلا قشره

عمر البطن ما جاب عدو

بدعي ع ولدي وبكره مين يقول آمين

القراءة المتأنية لهذا النوع من الأمثال، تعطينا صورة واضحة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمع يقوم على عصبية الدم أولاً وأخيراً، فالعائلة والعشيرة والقبيلة، هي دائماً على حق، بغض النظر عن مصداقية الموقف وصلاحيته، لذلك من الطبيعي جداً أن نجد هناك أمثالاً تتناقض تماماً مع مجموعة الأمثال التي سبق ذكرها:

اللي يوخذ أمي بصير عمي
جارك القريب ولا أخوك البعيد
كون نسيب ولا تكون ابن عم
خدمة الأهل زي الشخاخة في السهل
نار جوزي ولا جنة هلي
قلي ع ولدي وقلب ولدي علي حجر
الأقارب عقارب

من الواضح أن نوعية الأمثال الأولى، قد قيلت على لسان من يهمهم أن يكون موقف العشيرة جداً، وبالتالي يحصدون من ورائه المال والجاه والنفوذ والعزوة، حتى لو كان مثل هذا الموقف الموحد على حساب المواقف الشخصية لأفراد هذا التجمع، لكنا نرى اصطدام المصالح الذي تتبلور في النوع الثاني من الأمثال وبالتالي نلمس بوضوح ما يمكن تسميته بالتمرد على موقف العشيرة لصالح الموقف الشخصي.

د) العلاقة مع الأولاد

لأن المثل انحاز حتماً للأولاد الذكور نتيجة رغبة المجتمع في ذلك، فإنه حاول أن يرسم صورة لطريقة تعامل الآباء مع أولادهم في هذا المجتمع الذكوري، فالحفاظ على النمو الطبيعي للولد وصحته، أهم من الأخطار التي قد تواجه العائلة أو العشيرة، لأن هذا الولد المكتمل النمو ينتظره دور بارز في خدمة المجتمع وحمايته.

لو هجموا عليك القوم لا تصحي ابنك من النوم
اطعم ابنك الغالي ولبسه البالي

من جهة أخرى حاول المثل إبراز بعض وسائل التربية الواجب اتباعها من الآباء في العلاقة مع أبنائهم.

أن كبر ابنك خاويه
إن طلعت لحية ابنك زين لحيتك

الزواج

سنة من سنن الحياة، التي نظمتها الشرائع والقوانين، والتي تعامل معها المثل الشعبي بوعي اجتماعي واضح، نابع من الخبرة والتجربة.

فالزواج يختلف عن أية علاقة أخرى في المجتمع، لأنه علاقة دائمة وليست مؤقتة، فهو (زي المسمار في العنترة)، لذلك لا بد من التريث، ولا بد من الاختيار الصحيح، لتنظيم الحياة بتوازن ومسؤولية.

وإذا كان الزواج (شر لا بد منه) فهو ضروري أيضاً، انطلاقاً من (كون وبدو يعمر)، وهذا لن يتم إلا بالزواج والتوالد.

وقد حدد المثل خطوات ومراحل اختيار الزوجة، بالنسبة للأهل والشباب، وللتعامل لاحقاً مع استحقاقات هذا الزواج ونتائجه:

وجرت العادة عند بعض النساء، أن يقمن بالتزويج لحسنات ومزايا بناتهن، من أجل لفت نظر الأمهات الباحثات عن زوجات لأبنائهن، فقال المثل على لسانهن: عندي بنية يانسا بتهني وبتعزي وبتزور النفسا.

وهذه صفات مهمة للبنت التي تعي وظيفتها الاجتماعية في مجتمع متضامن متكافل، ولا بد لها أن تحظى بميزات أخرى تؤهلها للزواج.

إلها ثم يوكل وما إلها ثم يحكي

لكن المثل لم يكتف بهذه الميزات الاجتماعية على أهميتها، وذهب إلى وضع شروط أخرى ومواصفات كثيرة للمرأة – الزوجة، وحذر الزوج وأهله من الوقوع في شرك المظاهر الخداعة، فقال:

طُب الجرة ع ثمها بتطلع البنت لأمها

قبل ما تدور لك ع مرة، دور لابنك ع خال

ثلثين الولد لخاله

خذ أم الحيلة ولا توخذ أم الذخيرة

خذ المجنونة بنت العاقلة ولا توخذ العاقلة بنت المجنونة

يا ميخذ القرد على ماله بيروح المال وبيظل القرد على حاله

إياك تتجوز العجوز ولو كانت أكثر من قارون كنوز

المرة بتجيب ع سابع جد

خذوا البنات من صدور العمات

غير أن المثل لم يترك موضوع الزواج على عواهنه، فقد حدد مجموعة من الثوابت التي يصعب تجاوزها فيما يتعلق بزواج الولد أو البنت، وصارت هذه الثوابت جزءاً من قوانين الحياة الواجب احترامها والتقيد بها عند أبناء العشيرة، بغض النظر عن الموقف الشخصي منها:

ابن العم بنزل بنت العم عن ظهر الفرس

العورة لابن عمها

اللي بتحراها ابن عمها بتحرم ع الغريب

دور الدورة لو دارت وبنت العم لو بارت

عقدها حلها بيد ابن عمها

هذه الصورة واضحة عن مفهوم المجتمع للزواج من الأقارب، وتحديداً من بنت العم، (فالبايرة) و(العورة) يكون ابن عمها ملزماً بالزواج منها، وقد أعطاه المثل ميزة أخرى يستطيع بها أن يمنع ابنة عمه الجميلة من الزواج من أي رجل آخر إذا أراد.

وقد ظل مثل هذا القانون سائداً لفترات طويلة، واعتقد أن العمل به ما يزال موجوداً عند بعض العشائر والمجتمعات القروية.

وذهب المثل إلى تحريض والد البنت على الاهتمام بتزويج ابنته، وتقديم بعض التنازلات المادية إذا تطلب الأمر، لأن (هم البنات للممات) وعليه لا بد من تقليل هذا الهم إلى أدنى درجة بالبحث عن زوج مناسب لابنته.

دور لبنتك قبل ما تدور لابنك

جوز أهل الدار قبل الرجال

ادفع من جيبتك واستر وليتك

سترة البنت جيزتها

ولم يترك المثل موضوع الرغبة بالزواج مفتوحاً، بل ذهب إلى وضع بعض مفاضلات وطنية وقومية، حاثاً على الزواج من القريبات، لأن النتيجة الاجتماعية كما فهمها المثل وتعامل معها، أفضل من الزواج بالغريبات.

وإذا كان الزواج من قرية أخرى، أو عشيرة أخرى، يسمى (تغريباً) فكيف إذا كان هذا الزواج من قطر آخر، أو من ديانة أخرى؟!

والضوابط التي حددها المثل الشعبي كانت واضحة وضوح الوعي الوطني والقومي لصائغي المثل الذين يقفون وراء تعميمه ونشره.

من طين بلادك حط ع خدادك

خذ من زوان البلد ولا تؤخذ من قمح الجلب

زوان بلادنا ولا قمح الصليبي

اللي بيوخذ من غير جنسه دق البين فلسه

بنت العم بتصيرع الجفا أما الغريبة بتدلل

وكان المثل صارماً في تحذير الأهل وحثهم على اختيار زوج مناسب لابنتهم، لأن البنت لا يجوز أن تختار لنفسها:

إن دشرت البنت خاطرها يا بتوخذ طبال يا زمار

وفي هذا انتقاص من وعي الفتاة، ومصادرة لحقها في اختيار شريك حياتها، الأمر الذي يؤكد أن (السلطة الذكورية) في المجتمع، هي التي صاغت مثل هذا النوع من الأمثال التي تضاعف من نفوذهم وتمنحهم مزيداً من الصلاحيات في مصادرة حقوق النساء، حتى المقربات منهم.

لكن المثل لم يتعامل مع الزواج على أنه (صفقة) أو (تجارة) أو (مصلحة) بل انحاز إلى المشاعر الإنسانية والعواطف الكامنة داخل النفس البشرية، مؤكداً على ضرورة تنميتها وعلى دورها في اختيار شريك القلب:

القلب وما يهوى

كل كره واشرب كره ولا تعاشر كره

وعند إتمام مراسم الزواج بقدوم امرأة جديدة إلى بيت زوجها، ذهب المثل إلى رسم ملامح جديدة لحياتها في بيت جديد، ومع عائلة جديدة، داعياً (العروس) إلى التعامل مع أهل زوجها على أنهم أهلها، الذين تجب لهم الطاعة والولاء، فهو يقول على لسان الزوجة:

أبوي باعني وجوزي اشتراني

وأول ما تسمع هذه الزوجة من نصائح، سواء من أمها أو حماتها، ما يعطى المعنى نفسه، وما يذهب إلى ضرورة التأقلم مع حياة جديدة عليها:

أهلك اللي شروك مش أهلك اللي باعوك

قوم شروك ولا قوم باعوك

وربما تذهب المرأة حد التطرف في إثبات ولائها لزوجها وأهله، رافضة العودة إلى بيت أهلها أو مجرد التفكير في ذلك:

نار جوزي ولا جنة هلي

وحاول المثل من زاوية أخرى، أن يرسم صورة للمقاربة بين زوج المرأة وبين أهلها، بين حياتها في بيت زوجها وحياتها في بيت أهلها، فكانت النتيجة دائماً لصالح الزوج وبيته، ولصالح حياتها الجديدة.

ريحة الجوز ولا عدمه

الجوز رحمة ولو أنه بيجيب إلا فحمة

محاولاً التهكم على من تقف عكس هذا الموقف في صيغة استنكارية:

صح الها جوز قالت عنه أعور

ومع ذلك فإن العلاقة التي تربط بين المرأة وأهلها، هي علاقة رحم لا يمكن لكل العلاقات الأخرى أن تعوضها، أو أن تكون بديلاً عنها، فالأواصر في الحالات الطبيعية يجب أن تظل قوية، تعزز من مكانة البنت في بيت زوجها، وأمام أهله وأقاربه:

خير البنت لجوزها وشرها لأهلها

مين بيشهد مع العروس، أمها وخالتها وعشرة من حارتها

من سدت ثمها سترت عيبها وعيب أمها

وبعيداً عن كل هذه الاحتفالية التي أبداها المثل الشعبي في الدعوة للزواج والحث عليه، إلا أنه ترك الأمر أولاً وأخيراً بيد والد العروس الذي له حق قول كلمة الفصل:

اللي ما بدو يجوز بنته بغلي مهرها

محاولاً في الوقت نفسه، وضع ضوابط أخرى للرجل الراغب بالزواج، والتي في مقدمتها مقدرته المادية على تحمل أعباء وتكاليف الزواج، محاولاً رسم صورة كاريكاتورية لمن لا تتوفر فيه مثل هذه الضوابط:

اللي بيجوز بالدين بيجوا أولاده بالفايظ

متهمكاً أيضاً عن المتسرع بالزواج، الذي يفشل في عملية الاختيار، ولا ينصاع لكل هذه الشروط التي وضعها المثل، مثل هذا الشخص ينكبق عليه القول:

صام صام وأفطرع بصل

ولأن الزواج يسعى إلى بناء أسرة جديدة، تدخل معترك الحياة، فإن أطرافاً أخرى غير أهل الشاب وأهل الفتاة، تكون معنية بالزواج وإتمامه، مثل الخاطبة والجاهة وغيرهم، هؤلاء الذين وقف منهم المثل الشعبي موقفاً إيجابياً، داعياً إلى ضرورة السعي في مثل هذا العمل، الذي يعود حتماً بالسعادة والطمأنينة على فاعليه، وهو بالتالي حكم منطوق على لسان المجتمع كله:

نيال من وفق رأسين ع مخده

غير أن التخوف من النتائج التي قضي عند بعض الزيجات الفاشلة إلى الطلاق، وربما اتخاذ موقف سلبي من الخاطبة أو الجاهة، قد ترك آثاره على صائغي المثل الذي قال على لسان هؤلاء:

امشى بجنازة ولا تمشى بجوازة

ولأنه مثل يسير ضد منطق الحياة الطبيعية، فإن الكثير من الناس يتداولونه في جلساتهم، وعندما تحين لحظة الزواج لا يترددون في (المشي) باتجاه إتمام خطواتها، لما يحمله ذلك من وجاهة اجتماعية ومن موقف أخلاقي يعود بالسعادة على صاحبه.

ومع ذلك فقد ذهب المثل إلى رسم صورة واضحة لطبيعة المصاهرة في المجتمع، خاصة وأن الزواج سنة من سنن الحياة، لا بد منها لاستمرار الحياة في هذا الكون:

اللي بدك تصاهره لا تقاهره

لأن العلاقة الناتجة عن المصاهرة هي علاقة مستمرة دائمة وليست مؤقتة، لكن بعض الزيجات تأتي بأصهار سيئين:

صهر بسند الظهر وصهر بيجيب المجرفة للقبر

لقد حث المثل الشعبي على الزواج، ودعا إليه لأسباب كثيرة، لعل منها:

ما أعز من الولد إلا ولد الولد

ومن أجل ذلك فقد قال:

جواز ابنك ولد بيجيه ولد

obeikandl.com

المرأة

أفرد المثل الشعبي مساحة واسعة من اهتمامه للمرأة، وتكاد تكون الأمثال التي قيلت فيها وعنها هي أكثر الأمثال التي تناولت موضوعاً واحداً، والقارئ لمجموعة الأمثال هذه يرى أن بعضها قد قيل على لسان النساء أنفسهن، في الحديث عن بعضهن البعض، أو وصف غيرهن، في الوقت الذي حمل بعض الأمثال الأخرى ملامح ذكورية - أنها قيلت على لسان الرجال، في وصف علاقتهم بالمرأة ونظرتهم إليها.

إن الأمثال الواردة على لسان الرجال تختلف عن بعضها، فهي إيجابية ورقيقة حين يكون الحديث فيها عن الأم، لكنها تنتقل إلى القسوة والفوقية، حين يكون موضوعها المرأة - الزوجة، وتصل حد الشعور بالامتعاض والشعور بالذنب، حين تتناول الابنة أو الأخت.

وفي الغالب فإن الأمثال في معظمها لم تنصف المرأة، ولم تعطها حقها كإنسان فاعل في المجتمع، وقد يكون هذا نتاج نظرة طبقية ساهم الأغنياء والإقطاعيون في تعميمها، مع أن المرأة - كانت وما تزال - تؤدي دورها الفاعل في حياة الفلاح وأرضه.

لقد كان المثل الشعبي قاسياً حين وصف المرأة بقوله

النسوان ناقصات عقل ودين

المرأة بنص عقل

النسوان وداعة الأجاويد

متخذاً من هذا النص عنواناً للتعامل مع المرأة، وحقيقة اخترعها وصدقها، لأن مثل هذا النوع من الأمثال يكون بالضرورة صادراً عن عقلية ذكورية، كانت وما تزال ترى في المرأة عورة.

وتأسيساً على هذا الفهم، فقد بنى صائغ المثل الذكوري موقفه تجاه المرأة وخاصة الزوجة، التي هي شريكة حياة ذلك الرجل، والتي ظل دورها هامشياً في معظم الأحيان،

لأنها في نظره، أو هكذا أرداها أن تكون، غير مؤهلة للقيام بدورها كاملاً حتى في حياتهما المشتركة، فهو يقول:

مرة ابن مرة اللي بعطي سره لمرة

مرة ابن مرة اللي بيوخذ رأي مرة

مرة ابن مرة اللي بيشاور المرة

وإذا كانت هذه الأمثال تعطي جانباً وصفياً في العلاقة مع المرأة، وخاصة الزوجة، وأخذ رأيها في بعض أمور الحياة، فإن هناك غيرها من الأمثال التي جاءت تحمل طابعاً تحذيرياً، فيها من الأمر أكثر ما فيها من الوصف:

لا تأمن للمرة إذا صلت ولا للخيل إذا طلت

لا توخذ رأي المرة ولا تتبع الحمار من ورا

اسمع للمرة ولا توخذ برأيها

شاوروهن وخالفوهن

واضح من كل هذه الأمثال، إن المقصود منها هو عدم إشراك المرأة في إدارة شؤون حياة بيتها وزوجها، وليس لها والحالة هذه إلا طاعة الأوامر والقبول بشروط وتعليمات الرجل - أباً وأخاً وزوجاً-، غير أن المثل لم يكتف بتهميش دور المرأة والقفز فوق حقوقها، بل كان واضحاً في التعبير عن عدم الثقة فيها، إلى درجة أنها يمكن أن تمارس (الخراب) بحق بيتها وعائلتها، سواء بوعي أو بسذاجة، ويبدو ذلك واضحاً في الأمثال القائلة:

يا ناوي ع خراب بيتك أعطى سرك لمرتك

يا ناوي ع خراب الديار أعطي سرك للنسوان

لكنه في الوقت نفسه، حاول التفريق بين امرأة وأخرى، محاولاً الانتصار لنوع محدد من النساء، خاصة في موضوع الأسرار) التي هي بالضرورة تكون متداولة بين الرجل وزوجته:

لا تطلع سرك إلا على بنت ست وسيد، تحفظ كلامك لو أنك في بلد بعيد

هكذا اشترط المثل (نوعية) المرأة التي يمكن أن تحتفظ بالسر، وأن تكون مصدر ثقة لزوجها، وهو - أي المثل - أن كان قد أنصفها إلى حد ما، في مثل هذا القول، إلا أنه أساء كثيراً لبنات جنسها الأخريات، اللواتي تعامل معهن بكثير من الشك والريبة، وقد يكون ذلك انطلاقاً من الاعتقاد السائد بأن (المرأة ثرثارة) وأنها تميل إلى التحدث كثيراً مع الجارات، الأمر الذي يكون مدعاة لكشف الأسرار وإشاعتها، وقد وقف المثل موقفاً رافضاً لمثل هذه الثرثرة التي قال فيها:

خراف ثنتين خرب بيتين

وفي مواقع أخرى، كان المثل أكثر قسوة في تعامله مع المرأة، خاصة تلك الأمثال التي ينطبق عليها الوصف الذكوري، فالمرأة في نزر صائغ المثل لا تختلف كثيراً عن الحذاء، في إشارة إلى النظرة الدونية التي أشاعها الجهل والتخلف.

المرأة مثل الكندرة ما أسهل ما تنشلح وترتمي

ولأنه صورها كذلك فإن العلاقة معها يجب أن تظل مختلفة لأنه

طاعة النسوات ندامة

والرجل هو الذي سينجم حتماً جراء هذه الطاعة، لأن المرأة في نظره (ناقصة عقلاً وديناً)، وإمعاناً في امتهان المرأة من دورها في المجتمع، فإن المثل ذهب إلى التشكيك أيضاً في جدوى وفاعلية تربيتها:

عمر النسوان ما ربين ثور يحرث

ومع ذلك فقد حدد المثل حقوق الزوجة على زوجها، بالمؤونة فقط، عاداً ذلك هو الحق الوحيد لها الذي لا يستطيع الرجل حرمانها منه أو التنكر له.

المرأة العاطلة والصالحة عند جوزها بالمونة

مع عدم التفريق بين سلوكيات النساء وأخلاقهن، رافضاً الاعتراف بأي حقوق أخرى للزوجة بشكل خاص، أو للمرأة بشكل عام، الأمر الذي يؤكد أن مثل هذه الأمثال قد صيغت على لسان الرجل، وهو الذي يملك مصلحة في نشرها وتعميمها.

وإذا كان المثل قد انتصر للمرأة منحازاً إلى أصلها وتربيتها في بعض الأحيان، فإنه من جانب آخر، حاول إعطاء صورة مختلفة للمرأة، مؤكداً على بعض الإيجابيات التي تمثلها، لكن هذا الانحياز كان في معظمه نتيجة مقارنة مع وضع آخر وصورة أخرى، أي أنه لم ينتصر للمرأة على أنها امرأة أو إنسان، بل لأن الصورة التي رسمها لها المثل جاءت أفضل من غيرها، أو أنها استطاعت القيام بما هو غير عادي، جعل الرجل أولاً، والمجتمع ثانياً، يعترف بهذه القدرة وينحاز إلى هذه الإيجابيات:

إن قسيت القلوب عليك بالمحننات

مرة معززة بترد بلد

المرة أم العيال أكبر تجارة

المرة المليحة بتعمل من الهامل زلمة

المرة عمارة

مرة غنية أحسن من حمولة مهرية

فلانة خصبة أفضل من ألف عاقر

بنت الرجال ما بتهاب الرجال

ويلاحظ من مجموعة هذه الأمثال التي تعاملت إيجابياً مع المرأة، أنها تعاملت مع صفات ومزايا في المرأة، مثل الشرف والإنجاب والثروة وغيرها، هذه الميزات هي التي أعطت المرأة جزءاً من الاعتراف بها في مجتمع يخضع بالكامل للمنطق والرؤية الذكورية.

لكن كل هذه الميزات لم تشفع للمرأة، ولم تمنحها اعترافاً كاملاً بحقوقها، بل ظلت خاضعة للظلم وعدم التقدير، لأن المرأة بالنسبة للأب والزوج والأخ، يمكن أن تكون مصدر عار دائم.

هم البنات للممات

جوزت بنتي لارتاح من بلاها اجتني وأربعة من وراها

المرة العاطلة بتجيب لأهلها المسبة

المرة بتتعب أهلها ولو ماتت

هكذا نرى أن المثل وصائغيه، كان ينطلقون في موقفهم من المرأة، من نظرة فوقية استعلائية، تعامل مع المرأة ككائن (ناقص) غير جدير بالاحترام، ويبدو هنا أن المرأة نفسها قد استسلمت لقدرها في علاقتها الدونية مع الرجل، مهما كانت صفته بالنسبة لها، فلم تحاول الثورة على هذا الواقع، أو الانقضاض عليه، بل استكانت وقبلت به أمراً واقعاً، في الوقت الذي حاولت فيه تفريغ جزء من نقمتها على بنات جنسها - أي على المرأة نفسها، فبدل أن يتحد (المضهدون) في مواجة المجتمع الذكوري، نرى هنا جزءاً من معركة خاسرة بين النساء أنفسهن، وقد يعود ذلك إلى عدم قدرة المرأة على التصدي للرجل أو الوقوف في وجهه، فحاولت إسقاط جزء من غضبها على المرأة نفسها، لتكون المرأة والحالة هذه، تئن تحت ضغط اضطهاد متكرر، اضطهاد من الرجل، اضطهاد من المجتمع، اضطهاد من المرأة نفسها:

كنت ستها صرت أرقص بعرسها

أنا ست وأنت ست مين يكب الدست

غير أن المثل ينقل لنا صورة عن محاولة المرأة (النيل من هيبة الرجل) وهي وأن كانت محاولة خجولة، غير ذات تأثير الأفعال، إلا أنها تذهب إلى محاولة ثقب جدار الذكورية المسيطرة على المجتمع، فالرجل هنا لم يعد أسطورة مطلقة، لأن بعض الرجال تنازلوا عن (بعض) الهيبة، الأمر الذي شجع (المرأة) على التصدي لبعض الظلم الواقع عليها:

يا مأمنة بالرجال يا مأمنة بالمية في الغربال

الهامل بتشاطرع مرته

شو دخلك؟ مرة بتربي جورها

وتظل علاقة الرجل بالمرأة علاقة متشابكة تشابك ظروف الحياة وتعقيداتها، فلا يمكن لمركب الحياة أن يسير بدون طرفي هذا المركب، لأن للرجل علاقات متداخلة مع المرأة، فهي الأم والزوجة والأخت والابنة، وكان المثل واضحاً في تحديد نوع هذه العلاقة مع كل طرف.

فالرجل الذي يستشير زوجته في أمور حياته، كان محط سخريو وتهكم، لأن السلطة في مجتمع ذكوري لا تجيز لرجل أن يتحاور مع زوجته في شيء.

فلان شويرته مرته

لكن العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجته، تظل واضحة في إطارها الداخلي، أو في بناء الحياة المشتركة لأسرة جديدة، لذلك فإن المرأة لها موقع خاص في حياة زوجها ووجدانه:

الغول أكل كل الناس إلا مرته

وحاول المثل أن يقارن بين علاقة الرجل بالنساء المحيطات به، أو أولئك اللواتي يتعاملن معهن الأم، الأخت الزوجة، فكان لكل واحدة منهن نصيب في هذه العلاقة، وأن حاول المثل أن ينحاز أحياناً إلى جانب الزوجة، ويفضلها على غيرها، نتيجة العلاقة الإنسانية الخاصة التي تربط بينها وبين زوجها، ومن هنا نستطيع فهم الأمثالغ القائلة:

مرته اللي خسرته وأمه أكلت حسرته

مرتك وأنت قوي وأهلك وأنت غني وجيرانك وأنت سخي

قال أمك وإلا أختك؟ قال اللي بتغنج تحتك

لكن الرجل هو الذي يحدد لاحقاً، طبيعة علاقته مع زوجته وموقفه منها، خاصة إذا ما التزم بتوجيهات المثل القائل (ليش ما ذبحت بسك في ليلة عرسك) باعتبار أن الليلة الأولى في العلاقة بين الزوج والزوجة، تحدد مسار حياتهما اللاحقة، وغالباً ما تحاول المرأة التشبه بممارسات ومسلكيات زوجها في علاقته بمن حوله:

مرة الزابط زابط

لكن الصورة قد تنعكس تماماً، ويصبح الزوج متفاداً لتعليمات ورغبات زوجته، إذا كانت شخصيته ضعيفة:

ابنك على ما ربيته وجوزك على ما ظريته

لكن العلاقة مع المرأة الأم، تختلف في طبيعتها كثيراً عن العلاقة مع النساء الأخريات، فهي علاقة حض عليها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وظلت

علاقة إيجابية في كل مراحلها، غير أن المثل اعتبر أن للأم دوراً مهماً في موضوع التربية، وتنشئة جيل يمكن أن يتحمل المسؤولية في المستقبل، كان متهمكاً وساخراً من حجم الدلال الذي تمارسه الأم تجاه ابنها:

اللي وراه أمه ما ينهكا همه

شو همه.. مصروفه من أمه

اللي أمه في البيت بيوكل خبز وزيت

غير أن الكرأة من وجهة نظر المثل الشعبي، يجب أن تظل مقموعة، وإلا فإنها تكون جالبة للعار لأهلها، وكأن القسوة والعنف في التعامل، هو الذي يحصن المرأة ويبعدها عن الأخطاء والخطايا، متجاوزاً التربية المقنعة التي لا تفرق بين الولد والبنت:

إذا بدك تفضح زلمة دير وراه مرته، وإذ بدك تفضح مرة دير وراها ولد

حيا الزلمة بورث الفقر وحيا المرة بورث تعرصة

اللي بستحي من بنت عمه بيجهوش أولاد

هذه المرأة تظل مصدراً للأسئلة والاستفسارات، بعيدة عن علاقتها بالرجل، والمقصود هنا هو الزوج حتماً.

المرة بلا رجل زي البستان بلا سياج

في إطار توفير الحماية والأمن ورغبات الحياة لهذه المرأة، التي تفقد الكثير من أسباب حياتها بدون رجل.

لكن النساء سن سواسية في نظر المجتمع، لذلك حاول المثل إعطاء تصور عام يعين الرجل في المفارقة بينهن، من اختيار الأفضل في حياة تقوم على التعاون والمشاركة.

فيهن بيجبر البيضة، وفيهن بنعف الطحين في النتش

وإذا كانت هذه المقارنة تحمل في طياتها جانباً اقتصادياً، فلأن الاقتصاد يظل عماد حياة الأسرة، خاصة من ذوي الدخل المحدود، وما يمكن أن ينطبق اقتصادياً على المرأة وحياتها مع زوجها، يمكن أن ينطبق على أمور الحياة الأخرى، وفي المقدمة منها الشرف والطاعة والاحترام.

وإذا حدث العكس، أي لم تكن المرأة في موقع الاحترام والتقدير، فإن المثل كان حاسماً في تحريض زوجها للخلاص منها، داعياً إلى أسرة متحابة متعاونة، من أجل مجتمع صالح:

أن جيتها والعجين على أيدها طلقها ولا تندم عليها

شو بريحك من القاروط: قال طلاق أمه

لأنها والحالة هذه تكون قصيرة حيال زوجها ةبيتها، وينطبق عليه وصف (المادية) أي تلك التي لا تعير اهتماماً لشؤون بيتها، وهي هنا عكس (المعدلة) التي تنتمي انتماء مطلقاً لبيتها، و(المايلات) هن النساء اللواتي لا يعتين بتربية أبنهائهن مثلاً، هؤلاء الأبناء الذين يمكن أن يطلق عليهم وصف (أبناء الشوارع) المنحرفين والباحثين عن أسباب الجريمة وإثارة المشاكل في المجتمع، هم الذين احتاجهم هذا المجتمع، وسماهم بالاسم وقت اندلاع المشاكل بين العشيرة وغيرها من العشائر... فقال:

وين أولاد المايلات؟!

لأن مثل هؤلاء (الأولاد) هم الذين يحسمون المعركة حتماً.

وجزء من النساء (المايلات) هن اللواتي يتركن بيوتهن، ويذهبن إلى خارجها، في زيارات عبثية، تكون لإشباع الفضول والثرثرة التي تنعكس سلبياً على بيتها وعلاقتها بأسرتها، لذلك كان المثل حاداً في وصف هذا النوع من النساء لدرجة التشكيك بأخلاقهن أيضاً:

لو شافت السيل سال والميل مال ما تغير، إلها حال

دايرة ع حل شعرها

دايرة من بيت اركع لبيت اشكع

لكنه في الوقت نفسه أظهر تهاوناً وتنازلاً في نظرة الرجل للمرأة وعلاقته بها، ذاهباً إلى التغاضي عن كثير من سلبياتها الملموسة والواضحة، من أجل ما هو غامض في العلاقة بينهما:

لو كانت أيدها بتسخم الحيط اسمها مرة في البيت

ومع ذلك فالمثل الذي ذهب للتحريض على الطلاق في العلاقة الزوجية، حاول في مكان آخر الحفاز على ما تبقة من روابط زوجية، داعياً إلى تعدد الزوجات باعتبارها أقل ضرراً، ولا يصل إلى مرحلة أبغض الحلال:

كيد النسا بالنسا ولا تكيدهن بالعصا

والمرأة التي وجدت نفسها (ضرة) تعاملت مع الموضوع بازدواجية واضحة، هذه الازدواجية ناتجة عن تفاصيل العلاقة الاجتماعية اليومية في حياتها وحياة أسرتها، ففي الوقت الذي أنكرت فيه هذه العلاقة ورفضتها:

الضرة مرة ولو كانت ذان جرة

فإنها سجلت تنازلاً آخر في صيغة اجتماعية لا تخلو من التناقض:

مركب الضرار سار، ومركب السلفات احتار

إن الأمثال التي تحدثت عن المرأة هي أمثال تحمل في داخلها تحاملاً واضحاً عليها، لأن نسبة كبيرة منها وصفت المرأة بصفات لا تليق بكائن اجتماعي يقوم بكل هذا الدور المميز داخل المجتمع، والمثل المصاغ غالباً بلسان ورغبة ذكورية في مجتمع تطغى عليه أسباب التخلف، هو الذي أعطى مثل هذه الصورة للمرأة، المتناقضة مع دورها ووظيفتها الحياة.